المنهل ثورة منهجية وثروة لغوية

قاموس فرنسي عربي

بقلم الدكتور صبحي الصالح

قبل اشهر اخرجت دار الآداب ودار العلم للملايين معجما ثنائي اللغة (فرنسيا ـ عربيا) اشترك في تأليفه الدكتور سهيل ادريس صاحب مجلة « الآداب » والدكتور جبور عبدالنور الاستاذ في كلية التربية ، وسمياه « المنهل » ، وكان حقا « منهلا » كما سمياه .

كنا كلما زاولنا التعريب عن الفرنسية لا نجد في متناولنا الا معجم بلو Belot ، يشفي غلّتنا تارة ويذرنا في ظمئنا تارة اخرى ، فكان لزاما علينا ان نبحث ونطيل البحث لعلنا نعثر على طلبتنا في طائفة من المجلات والكتب والدراسات العلمية الاستشراقية، لدى من اجادوا لغتهم ثم نافسونا ـ لا في اجادة لغتنا فحسب ـ بل في حبها والدفاع عنها والايمان بخصائصها في التعبير والتصوير ، وقدرتها الذاتية على تلبية حاجات الحياة والاحياء في جميع العلوم والفنون .

وكان غيرنا ـ ممن يزاول التعريب عن الانكليزية ـ عالة على معجمات هزيلة لا تشفي غليلا ، حتى طلع علينا الاستاذ الجليل منير البعلبكي بقاموسه الانكليزي ـ العربي « المورد » الذي عددناه في حينه اجود ما ألّف في بابه ، فاستقبلناه كما استقبله الدارسون بالاكبار والترحاب .

على ان بلدا كلبنان تتفاعل فيه تيارات الثقافة العالمية ـ ولا سيما الفرنسية والانكليزية ـ لا بد ان يصبو الى « المنهل » مثلما صبا الى « المورد » فكلاهما على كل حال مورد للناهلين او منهل للواردين .

وان التجرد في الحكم ، والدقة في النقد ، والامانة في التحليل، لتملي علينا الا نبخل على الاستاذ البعلبكي بازكى الاطراء واسناه، فمحاولته في « المورد » للتعريب عن الانكليزية كانت في نظرنا ارهاصا لنجاح « المنهل » في التعريب عن الفرنسية .

وما كان لنا الا ان نشهد لمؤلفي « المنهل » بالاصالة المنهجية والامانة العلمية ، مهما يكن ما استقياه من معرّبات « المورد » وسواه غزيرا وفيرا : ذلك بانهما لم يكتفيا في مقدمتهما بنقد المصادر التي أفادا منها واخذا عنها ، بل اضافا الى ذلك ما ابتكراه ، واحسنا صنعا في ما اقترحاه .

وان « للمنهل » لمزية كبرى لا يقدرها حق قدرها الا من تيسر له مثلنا ان يقرأ كثيرا من مواد هذا الكتاب كما يقرأ كتاب ادبي لا معجم لغوي : فمن يقبل عليه بهذا الروح يعجب العجب كله لتماثل اسلوبه ، بل لاتحاد صياغته من الفه الى يائه ، كأن مؤلفه واحد في مواده كلها ، بالرغم مما نفترضه من ان الزميلين الكريمين قد اقتسما فيه التعريب والتبويب ، وانما تدل ثمرتهما المشتركة على توافق نادر وانسجام عجيب !

* * *

والآن ، ما الجديد في هذا المعجم الفرنسي العربي ؟ وهل اغنى لغتنا العربية وملأ في مكتباتنا فراغا رحيبا ؟

وجوابنا دون تردد : كل ما فيه جديد ، بل هو في راينا ـ كما اثبتنا في عنوان بحثنا ـ « ثورة منهجية ، وثروة لغوية » . ولسنا بعنواننا هذا نرمي الى المديح ، او نعمد الى التقريظ ، (فلسوف نتناول ، بالنقد والتحليل كثيرا مما ورد فيه) وانما نقصد حقا كل لفظ ذكرناه .

ان المؤلفين يؤمنان بقدرة العربية على مواكبة الحضارة ، ونقل مصطلحات المعارف والعلوم . وقد أكدا هذه الحقيقة بما لا يدع للريب مجالا ، فيما اختاراه او اقترحاه من نقل الفاظ الطب والتشريح والرياضيات والفيزياء والكيمياء والنبات والزراعة والطيور والحشرات وعلم النفس وعلم الفلك من النطاق الفرنسي الى النطاق العربي الخاص ، باساليب في التعريب وطرائق في الاشتقاق لا تضاهى رهافة ذوق ، ودقة وقاعدة ، وسلامة تعبير .

ولقد ثبت في ماضينا المجيد ان العربية كانت لغة حضارة مرت بتجربة ضخمة ابرزت طواعيتها للحياة وتلبيتها ادق مطالب الاحياء بالوان اشتقاقها في تلك الحركة الدائمة التي تلد كل لحظة مولودا جديدا ، وبانواع صيغها اسماء وافعالا وصفات في تلك القوالب التي تنسبك بها كل التعابير ، وباستعدادها الاصيل للاقتباس والتعريب في تلك الالفاظ التي خلقتها الحضارة والفنون. فما يك من عيب فهو في الباحثين العرب لا في اللغة العربية ، وما تقع عليه العين من تخلف في اي ميدان من الميادين فمصدره الوحيد قلة اهتمامنا بتطوير فكرنا العلمي ، لان انتشار اللغة ـ اي لغة كانت ـ رهن بمدى اسهامها في الواقع الحضاري . وذلك ما اراد الدكتور عبدالنور والدكتور ادريس ان يثبتاه ويأتيا عليه باقوى البراهين ، مؤكدين بالتطبيق العملي لا بالدفاع النظري ان العربية الفصحى ما تبرح تمر بالتجارب الضخام ، بل بتجارب اضخم مما سلف ، وانها تواكب نماءنا الحضاري وما تنفك قادرة على اختراع التعابير الحية لجميع الفنون .

وكان على المؤلفين الكريمين ان يختارا لعملهما المعجمي احد نهجين : « اما الاكتفاء بايراد تحديد لمدلول اللفظة المنقولة لتعذر ما يقابلها بالعربية ، واما بذكر المقابل العربي لها عند وجوده او تيسر اشتقاق ما يعادله » ، واذا هما يختاران النهج الثاني اغناء للعربية وتطويرا لها ، معتمدين ما أقره علماء العربية القدامى والمحدثون من اساليب التعريب والاشتقاق والمجاز والنحت عند الضرورة القصوى .

وأغلب الظن عندي انهما آثرا ذلك النهج الثاني ، على ما فيه من مشقة وعسر ، ليحسما الامر في طائفة من القضايا اللغوية اهمها ثلاث : اولاها التكامل من غير فترة ولا انقطاع ولا تعارض بين سبل النقل والترجمة والتعريب عند كل من القدامى والمحدثين ،وثانيتها التمكن الدائم المتواصل ، لدى المطلعين على معجمات اللغة ومصادرها، من العثور على اللفظ المعادل الدقيق للمدلول الذي يراد نقله الى العربية . وثالثتها تيسر ضروب الاشتقاق للالفاظ المطلوب معادلتها وامكان تنزيلها على احكام العربية وطبعها بميسم اوزانها وقوالبها ، ولا سيما على أيدي علمائنا وادبائنا المطبوعين . والمؤلفان الكريمان في طليعتهم بلا ريب .

اما القضية الاولى فلسنا نراها على وجهها الصحيح الا اذا المنا بالاصول والقواعد التي اتبعها القدامى في نقل المصطلحات العلمية الشائعة في زمانهم ترجمة وتعريبا . وقد لخصها الامير العلامة مصطفى الشهابي في كتابه القيم « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » ، ووجدها تتضمن الوسائل الاربع الآتية :

أ ـ تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية ، وتضمينها المعنى العلمي الجديد .

ب ـ اشتقاق كلمات جديدة من اصول عربية او معرّبة للدلالة على المعنى الجديد .

ج ـ ترجمة كلمات اعجمية بمعانيها .

د ـ تعريب كلمات اعجمية بمعانيها .

وابرز ما يتوقف عنده النظر الفاحص في هذه القواعد وما تتضمنه من وسائل تلك التفرقة الواضحة في زمان مبكر بين عملية الترجمة في جانب وعملية التعريب في جانب اخر ، وما تمليه كلتا العمليتين من لجوء الى تحوير المعاني تارة واشتقاق الالفاظ تارة اخرى . والى هذا كله تنبه النقلة القدامى في ما صنعوه على قوالب العربية ، او نسجوه على منوالها ، على صورة من الاتساع والمرانة والدقة بلغت حد الاعجاز ، لو اكتفينا الان بعرض خطوطها الاساسية لاتهمنا بالخروج عن موضوعنا الاصيل .

غير ان الذي يعنينا من تلك المفارقة الطريفة هو ذلك التكامل (وليس مجرد التشابه) الذي يزداد وضوحا اذا راجعنا القرار الحكيم الذي اتخذه مجمع اللغة العربية في القاهرة ، ونصه : « يجيز المجمع ان يستعمل بعض الالفاظ الاعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم » ، ومنه يستنتج أنّا لا نلجأ الى التعريب الا عند الضرورة ،وان الترجمة الدقيقة تقوم مقام التعريب وان الاخذ باحدى الوسيلتين ملتزم بطريقة العرب التزاما كاملا ، وان التواصل بين طرائق النقل القديمة والحديثة ما ينفك قائما بلا فترة ولا انقطاع ولا تضارب .

ووافية هذا التكامل قد تكفل بايضاحها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي (التابع لجامعة الدول العربية ، ومركزه الرباط في المغرب الاقصى) بوم وجه في اواخر سنة ١٩٦٦ استفتاء حول بطء حركة التعريب في العالم العربي رغم حاجتنا الملحة الى وضع المصطلحات العلمية والفنية ، وحول اختلاف المصطلحات التي تم وضعها وتعريبها ، ومعضلات التدريس الجامعي بالعربية وحلول تلك المعضلات .

وقد تشابهت يومذاك مقترحات العلماء الى حد كبير : فلمعالجة بطء حركة التعريب في العالم العربي مال اكثرهم الى تكوين لجنة جامعية من هيئة التدريس تشرف على نقل ما يوضع من دروس الى العربية السهلة الميسرة ، ودعوا الجامعات العربية الى الاسهام في وضع المصطلح العلمي الادق ، والسعي لنشر معجم للمصطلحات العلمية والفنية الاجنبية مع جميع معادلاتها العربية . ولم ير بعضهم بأسا في قبول طائفة من المصطلحات العلمية بالفاظها اللاتينية اسوة بجميع اللغات الحية ، ومن بينها الروسية ، فلا داعي لانفراد العرب بنقل تلك المصطلحات من اللاتينية الى العربية دون جدوى . اما بقية المصطلحات فلن تعجز العربية عن توليد اللفظ الملائم لها عن طريق الاشتقاق .

اما مشكلة اختلاف المصطلحات التي تم تعريبها في البلدان العربية فوجدوا لها حلا عمليا عن طريق الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، والمجامع العلمية واللغوية القائمة اليوم في القاهرة ودمشق وبغداد . فليس عسيرا ان يضع العرب حدا لاختلاف الاصطلاح العلمي اذا سعوا لايجاد مجمع عربي لغوي وعلمي موحد ، وعقدوا مؤتمرات علمية متواصلة بالتعاون مع المكتب الدائم لتنسيق التعريب.

واما مشكلة افتقارنا الى مراجع علمية عربية لتدريس كل العلوم على المستوى الجامعي فقد اقترحوا لحلها ان تسهم الدول العربية عن طريق جامعتها بتمويل مشروع على جانب عظيم من الاهمية: الا وهو اصدار معجمين عربيين ، احدهما لغوي والاخر علمي تعدّهما الهيئات العلمية واللغوية في الوطن العربي ، باشراف المكتب الدائم لتنسيق التعريب أيضا .

ومؤلفا « المنهل » أخذا بالاعتبار كل هاتيك الحقائق اللغوية التي يعدّ حاضرها امتدادا لماضيها ، فلم يقترحا كلمة جديدة تعاقب على استعمال غيرها المطبوعون قبلهما ، ولم يترجما ما كان ينبغي ان يعرّباه ، ولم يعربا ما كان ينبغي ان يترجماه ، ولم يأذنا في قضية التعريب برمي العربية بالعقم والتخلف مثلما انهما لم يزعما ان العربية بدع من اللغات !

ويبدو لنا ـ انهما لشديد صلتهما بامهات كتب اللغة ـ قد استنتجا من الفصل الذي عقده الثعالبي في « فقه اللغة » للاسماء التي تفردت بها الفرس ، ان طائفة من تلك الاسماء عرّبتها العرب او تركتها كما هي ، لكنها غالبا مما له اسم في لسان العرب برغم تعريبها اياه ، واطلعا في « المزهر » على ما نقله السيوطي من امثلة وشواهد تثبت ان العرب عرفت مثلا في لسانها الصرّفان قبل ان تعرّب (الارزرز) بالرصاص ، والمفد قبل ان تعرب (الباذنجان) ، والحرض قبل (الاشنان) . فانتهيا من ذلك الى الالتزام باحياء الفصيح وقتل الدخيل ، ووجدا اذا ان لا حاجة بهما الى التحول عن (النفقة) للدلالة على كل عذراء من الفراش من حرشفيات الاجنحة، المقابلة للفظ الفرنسي (Chrysalide) ولا الى النحول عن (الارفية) للدلالة على حيوان يسمى بالفرنسية (Phalène) ولا التحول عن (الزّريدة ـ تصغيرا لزردة) للدلالة على حلقة في سلسلة يقال لها بالفرنسية (Maillon) وهذه الامثلة الواردة على سبيل التوضيح لا الحصر كافية) لاقناعنا بانهما لم يعربا ما كان ينبغي ان يترجماه ، بل كان لهما من سعة علمهما بالعربية ما اتاح لهما ان يجدا دائما اللفظ العربي الملائم الدقيق الاصيل ، فهما في (منهلهما) يمتحان من النبع العذب النمير .

ولما اضطرا الى التعريب لم يتجشما ترجمة ما وجب ان يعرباه، بل التزما التزام الخلّص من أئمة اللغة بالتخفف من طول العبارة الشارحة ، وبتنزيل اللفظ المعرّب على اوزان العربية ، حتى يكون عربيا او بمنزلته ، مؤثرين بذلك ما آثره القدامى من البساطة والدقة والوضوح : كان يمكنهما مثلا ان يكتفيا بترجمة (Physique) بعلم الطبيعة ، لكنهما الفيا الترجمة غير دقيقة ، واختارا تعريب اللفظة نفسها منتهية بالالف الممدودة لكيلا يضيع اصل التسمية،

فاختّرا لفظي « الطبيعيات » و« علم الطبيعة » وقدمـا عليهمـا لفظ « الفيزياء » ، كانهمـا مع العلامة عزالدين التنوخي في كتابه « مبادىء الفيزياء» ينبهان كما نبه الى انه « لم يراع في الاصطلاح الا الافضل مما اشتد اليه مسيس الحاجة ، ولو كانت الكلمة اعجمية الاصل : فانها اذا ما تعرّبت بنزولها على احكام العربية خفت على اللسان وعذبت بصقله اياها في البيان : يدل على ذلك مثلا اسم الكتاب (مبادىء الفيزياء) » .

ومن تنزيلهما الكلمة الفرنسية على احكام العربية انهما فضلا لمقابلة (zorillé) لفظ (ظريل) بفتح الظاء على وزن (فعيل) ، وأبيا ضم اوله الذي هو اقرب لصوت O في مستهل الكلمة الفرنسية بعد حرف Z لانهما لم يجدا بين أوزان العربية بناء (فعيل) بضم فاء المثال ، لا في الاسماء ولا في الصفات. بيد انهما ـ على سبيل الاستطراد ، وابتغاء الشرح والايضاح ـ وضعا بين قوسين بعد لفظ (ظريل) العبارة التالية : (حيوان لبون من فصيلة السرعوبيات ذو فروة ثمينة سوداء وبيضاء) . واضافا مثل هذه العبارة الشارحة حيثما دعت الحاجة ، لكنهما تجنبا الافتصار عليها في جل ما عرباه ، بل اوشك ان أقول غير متردد : (في كل ما عرّباه)، وكانت تلك لهما مزية تفوقا بها تفوقا ظاهرا لا على المعجمات الثنائية اللغة فحسب ،بل حتى على المعجمات العربية الخالصة ، ولا سيما الحديثة ايضا .

وكان حسبهما ـ لو أرادا ـ ان يترجما (Tabard) بالسترة القصيرة التي كان الفرسان يرتدونها فوق دروعهم في القرون الوسطى ، لكنهما بكل اطمئنان عرباها بلفظ (الطِبَرد) بكسر التاء المحوّلة عن حرف T وفتح الباء وسكون الراء على وزن (الفرند) المعرّب عن الفارسية ، فاختارا بذلك اقرب الاوزان شبها بالعربية ومعرباتها . ولا ينبغي ان ننسى ان كلا من « طِبَرد » و(فرند) على وزن « دِمَثر » الذي يقال في الدّمث اللين العريكة، وعلى وزن « سبطر » : الذي يقال للشعر السبط الممتد ضد الجعد . والى كليهما اشار اللغوي العبقري ابن جني في مطالع فصله المشهور حول (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني) اذ قال وهو يعرض لاضرب هذا التصاقب : « ومنها اقتراب الاصلين ، ثلاثيا احدهما ورباعيا صاحبه : كدمث ودِمثر ، وسبِط وسَبِطر ..» مقررا بهذا ظاهرة التقارب بين اللفظ والمعنى التي هي في نظره من خصائص العربية ، ومن غورها الذي لا ينتصف منه ولا يكاد يحاط به !

* * *

وكان لعلماء اللغة القدامى من سعة التصرف بالكلمة المعرّبة ما يسر لهم ان يعملوا في بنيتها مباضع الاشتقاق ، اذ عربوا عن الآرامية لفظ (الزنديق) ثم اشتقوا منه الزندقة والتزندق ، وعن الفارسية (السرادق) ثم اشتقوا منه فعل سردق يسردق ، وقالوا : هذا بيت مسردق ، وعن الفارسية ايضا كلا من (النوروز) ثم قالوا: نورز ينورز ، (والديوان) ثم قالوا : دوّن تدوينا :

وحول تعريب الكلمة الاخيرة (الديوان) دارت ابحاث كثيرة في كتب الحضارة الاسلامية انتهت في الاعم الاغلب الى اعتبار هذه الكلمة فارسية ، وانها وضعت في البهلوية القديمة اسما للشياطين ، ثم اطلقت على الكتّاب لحذقهم ورشاقتهم ، ثم على اماكن جلوس اولئك الكتّاب . لكن الطريف في « المنهل » ان مؤلفيه الجليلين لما أرادا ان يقترحا تعريبا حديثا للنمطية الجامدة المهيمنة على الدواوين الحكومية (Buraucratie) اختارا لمقابلتها لفظ (الديوانية) اشتقاقا من (الديوان) ووفقا في ذلك التوفيق .

وكانا في نظرنا اكثر توفيقا وادق اصابة في ما أعملاه من مباضع الاشتقاق في لفظ (Phosphore) ، فبعدما عرباه بلفظة « فسفور » وجعلاه بذلك في منزلة العربي على وزن عصفور ، طفقا يشققان ويتفننان في التشقيق ، فكان (المفسفر) الحاوي للفسفور في مقابل (phosphoré) ، بينما كان (الفسفوري) بياء النسبة في مقابل صفتين حسب السياق : احداهما (phosphoreux) والاخرى (phosphorique) ثم كان (التفسفر) الذي هو الوميض الفوسفوري الناشىء عن امتصاص الاشعاعات في مقابل (phosphorescent) ! وتجد في الصفحة ذاتها من هذا المعجم تعريب فسفات مع كل مشتقاتها أسماء وأوصافا وأفعالا !

وان عجبك لن ينقضي مما انبث في « المنهل » من صور حضارية عالية ثم تعريبها صياغة بوساطة ما نسميه (نقل النقل) ، ونكتفي للدلالة على هذه الظاهرة الطريفة بلفظي (عربسه) و (كساته) ، فمن المعروف ان (Arabesquc) هو اللفظ الذي يعبر به الاجانب عن فن الزخرف العربي متعمدين في التسمية ابراز المادة الصوتية المكونة من أحرف العين والراء والباء . وعندما شاعت الكلمة في أرجاء العالم مع الكاسعة (esque) وأمست لفظة (الزخرف) لا تكاد وحدها تعوضها ، وباتت عبارة (فن الزخرف العربي) أثقل من أن تختار لطولها ، لم يجد مؤلفا « المنهل » مناصا من أن ينقلا كرّة أخرى تلك الكلمة الاجنبية التي كانت في الاصل عربية خالصة او وصفا ـ على الاقل ـ لصورة حضارية عربية ، واذا هما يوردانها على وزن (فعللة) مع ادخال السين على مادة (عرب) تعويضا للكاسعة الشائعة في اللغات اللاتينية ، فيقولان : (عربسة) .

اما لفظة (كساته) المقابلة للكلمة (Cassate) التي يراد بها نوع من الحلوى المثلجة للفاكهة والزبدة فاصلها عربي يلمح في (كاس) مسهّلة الهمزة ، ومن جموعها القياسية والسماعية (كاسات) بالاضافة الى كؤوس واكؤس ، وهي الاواني المعروفة التي تصب فيها الخمر والاشربة . لكن الدارسين الحضارة الاندلسية في أوجها يعرفون ان المترفين في قصور غرناطة واشبيلية كثيرا ما كانوا يتناولون ما لذ وطاب من الفاكهة المثلجة في كؤوس من الزجاج الشفاف مضوا على تسميتها (كاسات) ايثارا لخفة جرسها . ثم انتقلت الكلمة من الاندلس الى اوربة ، وجالت فاكثرت التجوال ، ثم عادت الى جذرها العربي بزي أجنبي (كساته) على وزن فعالة ، الصيغة المشهورة لمبالغة اسم الفاعل في حال التانيث .

* * *

تلك لمحة خاطفة ، لكنها كافية ، لايضاح القضية الاولىالتي حسم المؤلفان امرها بمنهجهما اللغوي الدقيق : انها قضية التكامل من غير فترة ولا انقطاع ولا تعارض بين سبل النقل والترجمة والتعريب عند من القدامى والمحدثين . ومن خلال عرضنا لمعالمها ، مؤيدة بالامثلة والشواهد ، اتضحت في الوقت نفسه القضية الثانية التي التحمت بها التحاما وثيقا : الا وهي التمكن الدائم المتواصل ، لدى المطلعين على معجمات اللغة ومصادرها ، من العثور علىاللفظ المعادلالدقيق للمدلول الذي يراد نقله الى العربية . وفي جل الامثلة التي انتقيناها من « المنهل » حتى الآن ما يثبت ان المؤلفين الكريمين ـ قبل ان يفكرا في نقل لفظ فرنسي ما الى العربية ترجمة او تعريبا ـ كانا بصورة مستمرة يهتديان الى ما يعادله في معجماتنا من لفظ عربي خالص ، اما جامد أو مشتق ، فيكتفيان بذكره وحده ويتجنبان تحديد مدلوله بعبارة شارحة طويلة تبعث القارىء عادة على السآمة والضجر ، وتحمله على سوء الظن بدلالة الالفاظ في العربية مع انها من أقدر اللغات على الشمول والاستيعاب ، ان لم تكن اقدرها على وجه الاطلاق .

ولو ساغ لنا أن نذكر شاهدا جديدا على هذه القضية ـ بالاضافة الى ما سبق ايضاحه ـ لاومانا مع المؤلفين في مقدمتهما الى كلمة Becquée ou béquée « فقد اكتفى عدد من المعجمات الرائجة بالقول في مقابلها : (ما ياخذ طير في منقاره لتغذية صغاره) ، في حين ان اللفظة المفردة التي تقابلها هي (زقة) » !

ـ التتمة على الصفحة ـ ٦٢ ـ

المنهل : ثـورة منهجيـة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ٣٢ ـ

بقيت القضية الثالثة التي لن تزيـد القضيتين السابقتين الا وضوحا وبيانا : وهي مسألة الاشتقاق ، أو كما عبرنا في صدر بحثنا : « تيسر ضروب الاشتقاق للالفاظ المطلوب معادلتها ، وامكان تنزيلها على احكام العربية وطبعها بميسم أوزانها وقوالبها » .

وهذه القضية اللغوية الاخيرة ذات أبعاد واسعة في العربية بما تشعب عن أصولها من فروع ، وما تكاثر في موادها من صنوف وألوان ، فان حركة الاشتقاق الدائمة فيها تنشىء لمشتقاتها صيغا مقدودة على قدها ، مرسومة على حدها ، لا شيء اكثر شبها بها من القوالب التي تصنع على مثالها السبائك الذهبية . ان في العربية اذن ظاهرتين متعاكستين ، وهما على تعاكسهما متداخلتان بل متكاملتان : ظاهرة الحركة الاشتقاقية فيما تلده وتحبيه ، وظاهرة الصياغة القالبية فيما تسبكه وتبنيه .

ولقد أراد العلماء من قبل ـ حين أدهشتهم هذه اللغة بأبنيتها المتكاثرة ـ أن يحصوا صيغ الاسماء والافعال ، فكان أول من حاول ذلك امام النحاة سيبويه في كتابه اذ أورد للاسماء وحدها ثلاث مئة بناء وثمانية أبنية (٣٠٨) ، وزاد عليه ابن السراج اثنين وعشرين بناء ، ثم زاد عليه الجرمي صيغا قليلة ، ثم أضاف ابن خالويه أمثلة يسيرة ، وما منهم الا من ترك أضعاف ما ذكر . والسيوطي في « مزهره » يروي عن ابن القطاع انه جمع في كتابه « الابنية » ما تفرق في تأليف أولئك الائمة ، فانتهى وسعه بعد البحث والاجتهاد الى ألف مثال ومئتي مثال وعشرة أمثلة (١٢١٠) .

* * *

ازاء هذه الصيغ والابنية المتكاثرة ، المتناسقة ، المتنوعة ، كان على مؤلفي « المنهل » ان يقفا موقفا علميا متوازيا ، مستبعدين منها أثقلها وأجفاها ، مستعملين منها أخفها وأقربها الى ذوق البلغاء المطبوعين . ولقد جزما بأن اللغة ليست عجينة طيعة في أيدي المتحذلقين ، انما هي أداة حية في أيدي صناع التاريخ وبناة الحياة ، وأقرا بالحقيقة الاجتماعية اللغوية التي تقول : « كلما قويت اللغة قوي القياس وكثرت الصيغ القياسية » ، فأفادا فائدة كبرى من كثرة ما يستعمل من صيغنا وما يدخل معمل السبك القالبي من ألفاظنا ومفرداتنا ، ولم يرفضا بعض محاولات التجديد المعاصرة لمعاني طائفة من الاوزان أو البسط لبعض دلالاتها ، بل أسهما في هذه الحركة التجديدية اسهاما غير قليل ، وان لم يكن كله على نسبة واحدة من النجاح .

واليك الآن هذه الباقة المقتطفة من عدد من الاوزان اقترحها المؤلفان لمقابلة بعض الالفاظ الفرنسية . واذا اتضح ان أكثرها من الثلاثيات مجردة ومزيدة ، أسماء كانت أم صفات أم أفعالا ، فسر ذلك ان الثلاثي هو ما استقرت عليه العربية ، أو هو على الاقل ما عليه جمهرتها المستعملة المتداولة . وهذا لا ينفي ان في « المنهل » أوزانا رباعية ، مجردة ومزيدة ، سيلجئنا الحديث عنها الى الخوض بعد قليل في بحث النحت والالصاق ، اثر فراغنا من ذكر شواهد الاشتقاق .

من ذلك مادة (م ه د) : نستعمل منها « المهد » للطفل ، و « المهاد » للفراش الممهد ، و « التمهيد » للمقدمة بين يدي الشيء ، لكن هل وجدت احلى منها جرسا ، وأدق منها مدلولا ، على وزن اسم الفاعل مؤنثا : (ماهدة) لارادة النغمة الزخرفية التي تمهد للنغمة الاصيلة ، في مقابل الكلمة الفرنسية (Appogiature)

ومن مادة (س ح ل) نعرف « الساحل » مثلما نعرف فعل « ساحل يساحل » ، لكن هل اخترنا كما اختار المؤلفان للسفينة التي تبحر قرب الساحل لفظ « مساحلة » استغناء بالصفة عن الموصوف على طريقة العرب ، في مقابل الكلمة الفرنسية (Caboteur)

وهل للذوق الرهيف أن يقدم اقتراحا أجود أو أنسب ؟

اذا كان اسم الفاعل المؤنث في المادتين السابقتين على وزن (فاعله) لان الاصل ثلاثي فان لفظ « المطققة » هو على وزن (مفعلة) : اسم فاعل مؤنث من الرباعي المضاعف ، لان أصل المادة مؤلف من اجتماع مقطعين (طق + طق) . وقد اختيرت في « المنهل » كلمة « المطققة » ـ التي هي أداة من خشب توقع عليها حركات الرقص ـ لتعطي مدلول اللفظة الفرنسية (Claquette)

ومن اسم الفاعل ننتقل الى صيغة (فعال) الدالة على المبالغة حينا وعلى المهنة حينا آخر . ولا بد في هذا الصدد من ان تعجب اعجابي بلفظ عياش (لمحب العيش وملذاته) (Bon viveur) وبلفظ عراش (للحصان الذي يعلق بعريشتي العربة) Limonier ولفظ « زناجة » بتاء التأنيث التي تفيد مزيد المبالغة في مقابل (Négrier) وهو مركب لنقل الزنوج .

وللدلالة على حفار النصفيات (Bustier)

أوردا في المنهل لفظ « نصّاف » على صيغة فعال أيضا . وليتك تدرك ما أدركته من رهافة الذوق في هذا الاختيار ، فلقد خيل الي ان المؤلفين لما مرا بلفظ (Buste) الذي هو تمثال نصفي او لوحة تمثل النصف الاعلى من الانسان ، واقترحا له لفظ (نصفية) قبل أن يقترحا لصانعه لفظ (نصاف) ، انما استجابا في ذلك لحسهما اللغوي الدقيق وفهمهما الادبي السليم : اذ ربما يخطر على البال ان اعتبار « التذكير أولى من اعتبار « التأنيث » ما دام النصف الاعلى من الانسان يجسمه على الاغلب « تمثال نصفي » ، ولفظ التمثال مذكر في العربية . ولكنها قضية ذوق ، لا أقل ولا أكثر ، واحدنا لا يدري ـ أو ربما لا يدري ـ لماذا يجد من القبول والارتياح للفظ (نصفية) بالتأنيث ما لا يجد مثله ولا بعضه لدى سماع لفظ (نصفي) بالتذكير في حال الافراد ، أما في حال الجمع فليس أمامنا الا لفظ (نصفيات) سواء أكان مفرده مذكرا أو مؤنثا لانهما حينئذ سواء . لذلك كان طبيعيا بعد هذا أن ننتقل مع المؤلفين من « النصفية » الى « حفارها » ، وأن نرحب بلفظ « النصّاف » دلالة على مهنة هذا الحفار من ناحية ، وايثارا للايجاز من ناحية ثانية .

واستطرادا مع أوزان المبالغة التي نحتاج اليها في كثير من الملابسات النفسانية ، تبدو أحيانا كاننا لا نريد أن نستعملها قياسا ، وقوفا منا عند السماع : كلفظ « سكير » على صيغة « فعيل » ، فهو شائع لدينا في كل من أدمن السكر وبالغ فيه . واذا كان هذا اللفظ انما شاع وذاع ، بعدما جرى به السماع ، فانه بلا ريب مقيس كما انه مسموع ، فليكن مثله في القياس المقبول المستساغ لفظ « شريب » في مقابل (Buveur) وما يشبهه من الالفاظ ، ما دامت لا تمجها الاسماع ، ولو لم يرد بها السماع ...

على هذا مضى المؤلفان ، وعلى أن تكون أوزان العربية حية طيعة مرنة متنوعة ظلا يسيران في اطمئنان : فبدلا من موضة في مقابل (Mode) وضعا لفظ (درجة) على وزن (فعلة) بضم الفاء ، لما لاحظاه من انها ما يدرج عليه من عادات ولا سيما في الازياء ، وقد يفضل بعضهم على (الدرجة) البدع والبدعة ـ بتاء التأنيث أو من دونها ـ لكنها وقد استعملت في الجو الديني وفي ظلال شديدة الخصوصية ليس لها من قوة الدلالة ودقتها ما لكلمة (الدرجة) بضم الدال . وترجمة كلمة (Airée) : كمية السنابل التي تدرس على البيدر كل مرة ، بكلمة (درسة) التي هي مصدر مرة على وزن (فعلة) ، بالغة من الحسن منتهاه !

وحين نطلع في نظرية « الكمات » العلمية على لفظ (Photon) الذي يراد به الجزيء ـ الجزء الصغير ـ من الطاقة الضوئية ، السنا نستحسن مقابلته بلفظ (ضويء) تصغيرا لضوء على وزن (فعيل) ؟ أولسنا نستحسن كذلك في مقابلة لفظ (Bas-relief) الذي هو نقش ضئيل البروز ، الكلمة العربية (نقيشة) على وزن (فعيلة) تصغيرا (لفعلة) من مادة (نقش) ؟ ربما نؤثر (الرقيشة) على (النقيشة) ، لان معنى الرقش هنا أدق من النقش ، ولكنا نظل مع المؤلفين في كلتا الكلمتين ، ما دمنا نطوع اللغة في استخدام صيغ

التصغير ، رغبة في الايجاز وابتغاء دقة التعبير .

وقس على ذلك ما في « المنهل » على وزن (مفعل) مثل (ممحص) مصنع لمحص المعادن (Affinerie) ، وعلى وزن (مفعلة) مثل (مفجرة) مخزن البارود والمتفجرات (Poudriére) و (مصوبة) دمية مشدودة الى عمود تستعمل للتدريب على التصويب (Quintaine) و (مثواة) كرسي واسع منجد المساند والظهر (Bergère) ، وعلى أوزان (مفعل ومفعلة ومفعال) الدالة جميعا على اسماء الآلة : مثل (مبركم) للآلة التي تدخر قوة كهربائية (Accumulateur) و (مجعد) للانبوبة التي يلف عليها الشعر ليجعد (Bigoudi) ، ومثل (مغردة) للصفارة التي تقلد صوت الطائر لاجتذابه (Appeau) ، ومثل (مزباد) لمقياس الزبد (Butyromètre) و (مقشاد) لمقياس القشدة (Butyroscope) وعلى وزن (فعالة) الدال على بقية الشيء مثل (جرافة) : ركام حجارة يجرفه نهر جليدي (Moraine)

* * *

ولمؤلفي « المنهل » ولوع ظاهر بوزن (فعالة) بكسر الفاء الدال على الحرفة ونحوها قياسا ، لكنهما ـ ابتغاء احيائه ـ يبسطان دلالته ، حتى ليوشك أن تنحصر دلالته لديهما في العلم بالشيء أو دراسته أو البحث فيه ، وكان ما اقترحاه في هذا الصدد جديدا كله ، لكن لم يكن مستجادا كله ، ولا مسلما به برمته : فنحن قبلهما ما عرفنا « الحياوة » علم الاحياء في مقابل (Biologie) ولا « العلامة » دراسة الاعلام في مقابل (Anthroponymie) ولا « التحافة » علم تنظيم المتحفات (Muséologie) ولا « الطفالة » دراسة حياة الاطفال وتطورهم (Pédologie) ولا « الصواتة » علم الاصوات الكلامية (Phonologie) ولا « الرسابة » مبحث الرواسب (Sédimentologie)

وانتفاء علمنا بمن بسط الدلالة في صيغة (فعالة) على النحو الذي أخذ به مؤلفا « المنهل » لا يأذن لنا ولا لغيرنا بالاعتراض على ما اقترحاه ، فليس لاحد ان يزعم انه ليس في العربية من كذا الا كذا ، « وهو كلام يخلو من المنطق والحكمة ، بل هو جهل مطبق ، فان المرء ليتساءل : من جمع لهم العربية في طبق فاحصوا كلمها ثم حكموا مثبتين : ليس في العربية من كذا الا كذا ؟ ولو قال قائلهم (لا أعرف من كذا الا كذا) لكان اقرب الى النصفة وأصدق قيلا » .

على اننا هنا ـ وان كنا لما نبلغ الحديث على مآخذنا على المؤلفين ـ لا نستطيع في صيغة (فعالة) بكسر الفاء أن نسكت على بعض ما خرجا فيه على قواعد الصرف ، سواء أوقعا في ذلك سهوا أو عمدا : مثال ذلك انهما اقترحا للكلمة الفرنسية (Bioclimatologie) التي هي دراسة العوامل المناخية في الاجهزة الحية لفظة (المناخة) بكسر الميم على وزن (فعالة) ، ناسيين ـ وما كان لهما أن ينسيا ـ ان هذه الصيغة انما تكون في الثلاثي المجرد لا المزيد ، مع انهما يعرفان بلا ريب ان أصل الفعل في هذه المادة لا يستعمل في الصورة الثلاثية المجردة (ناخ) ، ومن هنا قيل « مناخ » وأصلها (منوخ) على وزن (مفعل) لا على وزن (فعال) لان الميم ليست أصلية ، وقد ساغ لهما من أجل ذلك أن يجعلا في مقابل كلمة (Aérium) التي هي مصحة للمعالجة بالمناخ كلمة (مناخة) على صيغة (مفعلة) لا على صيغة (فعالة) كما قد يتبادر الى القارىء العجلان .

ومهما يكن من شيء ، فقد أفاد المؤلفان فوائد جمة من سعة اطلاعهما على القواعد الصرفية ، ولم يألوا جهدا في استخدام أحرف الزيادة القياسية ، بل التزما في ذلك ما به استطاعا أن يقدما من الاوزان أكثرها توافقا مع المعاني التي يريدان : ففعل « كدح » الثلاثي لما زادا عليه همزة التعدية (أكدح) جعلاه مقابلا للكلمة الفرنسية (Prolétariser) . أي حوّل فئة الى الوضع الكادح ، ولا شك ان هذه الزيادة قياسية بقدر ما هي سماعية . ومن كلمة (الحر) انبثق لديهما فعل (احتر) بتضعيف الراء ، اذ أصل المادة (احترر) على وزن (افتعل) ، فانشأ منه اسم « الاحترار » قاصدين به تحول الاشعاعات الضوئية الى اشعاعات حرارية في مقابل (Calorescence) وعندما بحثا عن مقابل للكلمة الفرنسية (Atavisme) التي هي ردة وراثية أو عودة الى طباع الاسلاف ، وجدا مبتغاهما في لفظة (تأسلية) التي هي بعد حذف الياء المشددة والتاء المربوطة على وزن (تفعل) ـ (تأسل) الذي فيه المادة الثلاثية الصوتية (أسل) بمعنى (أصل) . ووفقا في هذا الاقتراح كما وفقا في صيغة (التصرفية) التي وضعاها لنزوع بعض علماء النفس الى دراسة تصرفات السلوك (Opérationnisme)

والمؤلفان الجليلان ـ كجميع أدبائنا المعاصرين ـ يجنحان الى الاكثار من المصادر الصناعية التي رأينا مثالين منها في الفقرة السابقة في كل من (التأسلية) و (التصرفية) ، ونضيف اليهما مثالا ثالثا في (الاخفائية) : الايمان بالقوى الخفية للدلالة على لفظة (Occullisme) لكنهما اذ جعلا في مقابل (Cherry) مشروب الكرز لفظة (كرزية) ، أو في مقابل (Chiffonade) الطعام الذي تكثر فيه الخضار لفظة (خضارية) ، فليست الياء في نظرهما حينئذ الا ياء النسبة في حال التأنيث ، اذ ليس في اللفظين المقترحين امارة على «المصدرية» لا صناعية ولا غير صناعية . وعلى هذا النمط ، يكون كل من لفظي (تسجالي) و (تصواري) في مقابل (Phonogénique et Photogénique) على التوالي على صيغة (تفعالي) بزيادة ياء النسبة على مصدر (تفعال) الدال على كثرة الشيء : وهنا يراد بالتسجالي صاحب الصوت الملائم للتسجيل ، بينما يقصد بالتصواري الملائم للتصوير من وجهة النظر الجمالية .

ولقد آمن مؤلفا « المنهل » مع لوروا (Leroy) بانه « لا بطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها احدى الكلمات الا المعنى الذي يعينه النص » ، فاقترحا أحيانا لمقابلة الكلمة الفرنسية لفظتين عربيتين أو أكثر ، وراعيا في كل لفظ مقترح احتمال ضرب من ضروب الاشتراك ، ليختار المترجم أو المعرب ما يبدو له أقرب الى السياق : مثال ذلك كلمة (Modernisation) فقد جعلا ازاءها لفظي « تحديث » و « تعصير » ، وكلاهما مصدر على وزن « تفعيل » تحول كنظائره اسما من أسماء المعاني ، ولاحظا ان القارىء الفطن لا بد أن يستنتج أولا ان « التحديث » مأخوذ من الشيء الحديث بمعنى الجديد لا من الحديث الذي يلقى القاء أو ينبأ به انباء ، وان « التعصير » مأخوذ بدوره من الشيء العصري لا من الشيء المعصور ، السياق ، كما ان القارىء الحصيف لا بد أن يستنتج ثانيا ان السياق نفسه يفرض تارة استخدام التحديث ، وتارة استعمال التعصير ، تبعا للمعنى المقصود الذي يطفو في الشعور ، وينسجم مع التعبير . ومثل ذلك يقال في كلمة (Modernisme) فقد جعل المؤلفان ازاءها ثلاث كلمات على التوالي : حداثة ، عصرية ، عصرانية ، كأنهما بذلك تركا للقارىء أو المترجم أو المعرب مجال الاختيار ، فالكل مقام مقال ، وان كانت الكلمة الثالثة (عصرانية) تبدو ها هنا أقربها الى المراد بوجه عام .

* * *

ولم يكن للمؤلفين مهرب من النحت ما داما يعلمان ان مراعاة معنى الاشتقاق تنصر جعل النحت نوعا منه : ففي كل منهما توليد شيء من شيء ، وفي كل منهما فرع وأصل ، ولا يتمثل الفرق بينهما الا في اشتقاق كلمة من كلمتين او اكثر على طريقة النحت ، واشتقاق كلمة من كلمة في قياس التصريف . قال ابن فارس في « الصاحبي » : « العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار » .

وقد ابتدع ابن فارس لنفسه مذهبا في القياس والاشتقاق ، اذ رأى ان الالفاظ الزائدة على ثلاثة احرف فاكثرها منحوت ، وبنى معجمه « مقاييس اللغة » على هذا المذهب في كل مادة رباعية أو خماسية وسعه أن يرى فيها شيئا من النحت ، حتى كثرت المواد المنحوتة على مذهبه لو استخرجت من مواطنها المتفرقة في معجمه . بيد انه فيها كلها انما فسر ما اعترى بعض مزيدات الثلاثي من زيادة اللفظ واختزال المعنى ، فعلل بذلك ما لاحظه من النحت الذي اخبر الرواة عنه انه على طريقة العرب منحوت ، وهو بصنيعه هذا لم يقترح من تلقاء نفسه نحت كلمة من كلمتين او اكثر لاداء معنى علمي ، او ترجمة اصطلاح فني ، أو تعريب مفهوم فلسفي .

هنا اذن يبرز دور « المنهل » بما حواه من الفاظ منحوتة شاعت على السنة البلغاء في السنين الاخيرة ، واقرت بعضها المجامع اللغوية والعلمية ، وبما اقترحه مؤلفاه من اختزال الفاظ جديدة كلما الجأتهما الضرورة ، بل الضرورة القصوى كما عبرا في « المقدمة » وكما طبقا ذلك في « معجمهما » عمليا ، موقنين « بأن النحت يحتاج الى ذوق سليم ، فكثيرا ما تكون ترجمة الكلمة الاعجمية بكلمتين عربيتين اصلح وأدل على المعنى من نحت كلمة عربية واحدة يمجها الذوق ويستغلق فيها المعنى » .

وضعا مثلا في مقابل (Névroptères) الجناح ، لان المعنى يستغلق في « العصجناحيات » ، وفي مقابل (Acanthoptérigiens) شائكات الزعانف ، لا « الشوجنيات » ، وبازاء (Orthoptères) مستقيمات الاجنحة ، وليس « المسجناحيات » ، لان ذينك اللفظين المنحوتين على اختزالهما مستكرهان في الاسماع . بل وضعا ثلاثة الفاظ (محكوم بالاشغال الشاقة) لترجمة (Forçat) بدلا من ان يقولا على سبيل النحت مثلا (شقشغيل) مع انه على وزن (سلسبيل) .

فاما الالفاظ التي ألفياها بالنحت رشيقة مستساغة فما ترددا ولا تلكآ في اختزالها ، ولا سيما اذا كتبت لها السيرورة في بعض المجتمعات العربية أو جلها ، وهكذا جعلا لفظ (مرسمل) في مقابل (Capitalisé) بدلا من (محول الى راسمال) ، وهو نحت شائع بل يكاد يكون دارجا ، ووضعا لفظ (مردفز) بازاء (Radiotélévisé) بدلا من (مذاع بالراديو والتلفزيون معا) . ثم بسطا عملية النحت حتى شملت كثيرا من الالفاظ الاصطلاحية العلمية التي نعتبرها الآن كغيرنا مستحسنة ولا مستهجنة قبل ان نعرف مدى تقبل مجتمعاتنا لها او رفضها اياها ، ما دمنا مع المؤلفين نخضع النحت للذوق العربي العام ولذوق المطبوعين من البلغاء بوجه خاص : ذلك بأن بعض الناس ربما يؤثر عبارة (نزع الكلسيوم) على اللفظ المنحوت (نزكل) للدلالة على الفعل الفرنسي (Décalcifier) ، ولا سيما اذا توهم التباس النحت بلفظين مغايرين لفعل (نزع) + لفظ الكلسيوم ، زاعما ان الفعل هو (نزر) + الكلس عوضا عن الكلسيوم ، وان بعضهم الآخر قد يفضل عبارة (حفر نسقي) على اللفظ الذي اقترحه المؤلفان منحوتا مختزلا (حفسقة) مع انه على وزن عربي كثير الشيوع (فعللة) في مقابل كلمة (Similigravure)

* * *

وبدلا من ان نسهب في عرض أمثلة من منحوتات « المنهل » ومختزلاته ، سواء اجاءت مقبولة ام مجتها الاذواق ، نترك الحكم عليها لكتابنا ومفكرينا ، ونكتفي الآن بتسجيل ظاهرتين استأثرتا بكثير من اهتمامنا في هذا الصدد : احداهما عناية المؤلفين بادخال طائفة من الصدور والكواسع (préfixes et Suffixes) على ما خلناه ضروريا من الالفاظ العلمية اسوة بارقى اللغات الحية التي لم تستنكف عن الصاق تلك السوابق واللواحق بنسيج كلماتها ولو انها في الاصل ذوات جذور حضارية قديمة كاليونانية واللاتينية : انهما لم يجدا ضيرا في ادخال الكاسعة (ite) على فسفور ، فقالا : (فسفوريت) وهو نوع من فسفات الكلس الطبيعي لمقابلة (Phosphorite) ولا في ادخال الكاسعة (ine) على اللفظ العربي (صبغ) بازاء (Chromatine) ولا اقحام الكاسعة (ase) على مادة الكحول في اللفظ (كحولاز) وهو خميرة منحلة تحول السكر الى كحول وثاني اكسيد الكربون (zymase) وتبنيا ما اقترحه الاطباء الاساتذة الكبار في جامعة دمشق من تعريب (Alcoyle) بالفوليل و (Carbonyle) بالفحميل ، و (Formyle) بالنمليل ، و (Amyloide) بالنشويد . واقحاما للصدور على سبيل النحت ، لم يستثقلا لفظ (قبتاريخي) في مقابل (Préhistorique) حيث اختزلت (قبل) على شكل (قب) ، كما انهما لم يستهجنا لفظ (لبارز) المؤلف من لبنان وارز في مقابل (Libocedrus) : اسم شجر من فصيلة الصنوبريات .

اما ظاهرة النحت الثانية فهي من اعجب ما وجدناه في « المنهل » واشده اصالة : انها ظاهرة نحت النحت ، قياسا على ما كنا عرفناه لديهما ولدى غيرهما ايضا من اعمال مباضع الاشتقاق حتى في المعربات . ونكتفي بمثال واحد على هذه الظاهرة الطريفة في فعل شمزر (ادخل في اللحم قطعا من شحم الخنزير) لمقابلة الفعل الفرنسي (Larder) فان هذا الفعل المقترح منحوت من (شمنزير) الذي هو بدوره منحوت من كلمتين (شحم + خنزير) لمقابلة اللفظة الفرنسية (Lard) وقد يستانس للدلالة على سلامة استنتاجنا بان المؤلفين وضعا قبل (شمنزير) لفظا عربيا شائعا (ودك) ، الا انهما عند اشتقاق الفعل نحتاه من اللفظ المنحوت لا من اللفظ الاول الذي بدأ به وهو العربي الاصيل .

وتصرف المؤلفين باصول الترجمة والتعريب ، واساليب النحت والاشتقاق ، قد أتاح « لمنهلهما » ان يكون الى معجم بول روبير (Paul Robert) اقرب منه الى معجم لاروس ، بل « المنهل » يبدو ادق من كلا المعجمين واغزر منهما مادة ، بفضل ما تمتاز به العربية الفصحى من طواعية « معجزة » في قوالبها واوزانها التي لا تتناهى ، وبفضل ما زخرت به من الوان الصور المجازية والتعابير المتطورة الحية .

ولكأني بالدكتور ادريس والدكتور عبد النور يريدان أن يقدما لنا معجما عربيا خالصا لا ثنائيا (فرنسيا ـ عربيا) ، فيما بناه في معجمهما من امثال وتعابير عربية محضة منتزعة من بيئتنا وماضينا وحاضرنا ، يوشك القارىء ان ينسى ارتباطها القاموسي بالعبارات الفرنسية التي تقابلها . واليك بعضها :

ما حك جلدك مثل ظفرك :
On n'est Jamais si bien servi que par soi-même

كل الصعوبة في البداية :
il n'y a que le premier pas qui compte .

عند الخطر يهرب الجبناء : Les rats quittent le navire .

دع الامور تجري في اعنتها : Laisser aller les choses .

هو بين شقي الرحى :
Se trouver entre l'enclume et le marteau .

شقت العصا بينهم :
Leurs chiens ne chassent pas ensemble .

اطلق لهواه العنان : Donnr carrière à sa fantaisie .

احتفظ برباطة جاشه : Conserver son calme

هذا قرة عين الاهل : C'est le bijou de la famille .

خارت عزيمته : Son courage l'abandonna

لين العريكة : D'un naturel doux .

تغشى عينيه غشاوة : Avoir un bandeau sur les yeux .

أثار طنطنة حول حدث :
Faire du tam-tam autour d'un événement .

هذا المشروب لذيذ المذاق :
Cette liqueur laisse un bon gout .

بالتي هي أحسن : Par la douceur .
دعني وشأني : Laisse-moi tranquille .

* * *

لكن ... برغم هذه المزايا التي أشدنا بها ، لم يسلم « المنهل » من بعض المآخذ شكلا وموضوعا . أما أهم مآخذنا عليه شكلا فنلخصها في ما يأتي :

١ ـ قلة الرسوم والصور الموضحة ، وهو أمر يسهل تداركه في المستقبل ، ولا سيما اذا كتب الله لهذا المعجم السيرورة ، وهو ما نتوقعه له بكل اطمئنان .

٢ ـ بعض المصطلحات المثبتة في آخر الكتاب يوقع في الاشكال واللبس ، كهذه النجيمة (*) التي تدل في النص العربي على ان اللفظة العربية هي جديدة ومقترحة لتعبر عن المعنى الوارد بعدها بين هلالين، وكتلك النجيمة الاخرى المماثلة لها التي تدل في النص الفرنسي على ان الكلمة من أصل عربي . وفوق ذلك ، لا يتضح للقارىء ما يرنيه المؤلفان من ارتداد بعض الكلمات الى جذر عربي : مثال ذلك ان الاحالة في كلمة (Tabis) كانت على كلمة (Moire) ولما عدنا الى هذه الكلمة الاخيرة وجدناها في المنهل مسبوقة بنجمة هكذا: (Moire) ثم وجدنا ترجمتها العربية كما يلي : (مخير = نسيج متموج المظهر) ، فأين الاصل العربي حتى وضعت النجيمة ؟ لو قالا في ترجمة (Moire) ممور ـ بمعنى متموج ـ لكان أدق وأنسب .

٣ ـ الاحالة في بعض الكلمات على ألفاظ نرادفها مع ان شرحها مختصر في الوضع المناسب . مثاله : Tabassée : V . Raclée ولما رجعنا الى كلمة (Raclée) وجدناها بمعنى ضربات متصلة ، فما المانع من اعادتها ما دامت قصيرة بهذه الصورة ؟

٤ ـ الاسهاب في شرح بعض الكلمات الى حد الخروج بالمعجم الى ما يشبه الموسوعة . وأما أهم مآخذنا الموضوعية على هذا المعجم القيم فثلاثة يجمعها كلها شيء من التساهل في القواعد الصرفية : أحدها اختراع أوزان على غير القاعدة الصرفية ، مثل مفعل يمفعل بدلا من (فعلل يفعلل) في كل من (مفهم) في مقابل (Conceptualiser) و (معجم) في مقابل (Lexicaliser) ، (ومشرك) في مقابل (Socialiser) . ولا ريب ان لنا مندوحة عن (مفهم) بانخذ مفهوما ، وعن (معجم) بدوّن في معجم ، وعن (مشرك) بجعل الشيء اشتراكيا ، فانها ـ وان طالت ـ أقرب الى البساطة والوضوح . ولا مجال في مثلها لتركها لذوق المطبوعين ، لان اقحام الميم على الافعال يخرج خروجا تاما عن أساليب العرب في اشتقاق الالفاظ وسبك الاوزان .

والمأخذ الثاني ما وهم المؤلفان انه على القياس الصرفي مع انه غير مقيس ، ومع انهما لم يقصدا اختراع جديد فيه : مثل (مجفف) بفك الادغام ، للمكان الذي تجفف فيه الوحش والطير بعد المطر (Ressui) ،فواضح انه على القياس الصرفي (مجف) بادغام الفائين ، ومثل (حصية) للخريطة الاحصائية (Cartogramme) فربما يتوهم القارىء ان (حصية) على وزن (فعيلة) بمعنى (مفعولة) من الفعل الثلاثي المجرد (حصى) على حين قصد المؤلفان معنى الاحصاء من الثلاثي المزيد بحرف الهمزة (أحصى يحصي) ، ويشبهه لفظ (المشترك) الذي وضعه المؤلفان في مقابل (Phalanstère) تجمع انساجي دعا الى اقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه ، ولن يتبادر أبدا الى القارىء ان له ارتباطا بالاشتراكية ، بل سيتوهم انه اسم مكان على وزن (مفعل) وانه مكان لنشترك لا للاشتراك !

والمأخذ الثالث الاخير غموض الدلالة في بعض الالفاظ العربية المقترحة ، اما بسبب وزنها غير الملائم ، كلفظ (الافنضاء) في مقابل (Agoraphobie) للخوف المرضي من الارض الفضاء ، فان هذا اللفظ العربي على وزن (افتعال) وهو يفيد غالبا اصطناع الشيء وتكلفه ومعاناته اكثر مما يفيد المرض ، ويقال مثل ذلك في لفظي (مرباة ومنتقاة) لمقابلة لفظ (Lais) ، واما بسبب مماثل الصيغة العربية مع انها تقابل كلمتين فرنسيتين متباينتين ، مثل صيغة (صوانة) بكسر الصاد على وزن (فعالة) فقد جعلها المؤلفان تارة أمام (Phonologie) علم الاصوات الكلامية ، وتارة أخرى ازاء (Phone) وحدة الطاقة الصوتية التي تستعمل في قياس كثافة الاصوات . وأغلب الظن انهما لا يجدان بأسا في ذلك لما يعرفان من كثرة المشترك اللفظي في لغتنا العربية .

* * *

وان كتابا « كالمنهل » تزيد صفحاته على ألف ومئة ، وفي كل صفحة ثلاثة أعمدة ، بأدق حرف طباعي ممكن ، يخلو من التطبع أو يكاد، لامر يدعو الى الاعجاب حقا : فبعد لأي وجدنا فيه لفظي (بلعومي وحلقومي) بفتح الباء والحاء منهما ، والصواب (بلعومي وحلقومي) بالضم ، في مقابل (Pharyngien) ، ووجدنا لفظ (القوى) الذي يجب ضم قافه مكررا في مواطن عدة بكسر القاف ، كما وجدنا شيئا من التساهل في عين الفعل المضارع ، وما أندر الذين لا يتساهلون بأمرها في القديم والحديث !

وبعد ، فان هذه المآخذ ـ حتى لو سلم معنا النقاد بأنها مآخذ ـ لا ينبغي أن تغض من قيمة « المنهل » الذي عبد الطريق أمام النقلة من مترجمين ومعربين عن الفرنسية . ولسوف تنهل الكثير ، من نبعه العذب النمير ، وانقين كلما ارتوينا منه بأنه ثورة منهجية ، تحتذى حتى في المعجمات الشارحة لالفاظ عربية ، وانه في الوقت نفسه ثروة لغوية نؤكد ان كل لغات الانسان أدوات لا غايات ، فبها يلتقي الثقافات، وعن طريقها تتلاقح الحضارات !

صبحي الصالح
أستاذ فقه اللغة في الجامعة اللبنانية

صدر حديثا

وسام على صدر الميليشيا

للشاعر خالد ابو خالد

دار الآداب